



خطبة صلاة الجمعة 6 / 2 / 2015 للشيخ الطبيب محمد خير الشعال، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

(كيف يكتسب المرء الخلق الحميد ويتخلى عن الذميمة؟)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيُّه وخليفه، خيرُ نبيِّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كرهه، اللهم صلِّ على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (هَذِهِ أَجْمَعُ آيَةٌ فِي الْقُرْآنِ لِحَيْرٍ مُّتَتِّلْ، وَلِشَرٍّ يُجْتَنَّبْ).

قال تعالى في وصف نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

قَالَتِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (مَا كَانَ أَحَدٌ أَحْسَنَ خُلُقًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا دَعَاهُ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَلَا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ إِلَّا قَالَ: لَبَّيْكَ).

وقال صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةً صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ» [الترمذي].

أيها الإخوة:

نحن في الخطبة الثالثة من سلسلة خطب عناوينا (فضيلة... أخلاق تعاملية)

الخلق: هو السَّجِيَّة والطبع. وعَرَّفَه الإمام الغزالي بأنه: (هيئةٌ في النفس راسخة، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويُسر، من غير حاجة إلى فكر وروية).

يطبع الله تعالى أناساً على بعض الأخلاق النبيلة، بينما يحتاج آخرون إلى التدرب عليها والتطبع بها حتى تصبح طبعاً لهم وخلقاً.

بينما يطبع آخرون على خلال حميدة أخرى، فيحتاج الأولون إلى التدرب عليها لتصير لهم طبعاً وخلقاً. فيتساوى العباد في التشريف والتكليف.

فبإمكانك التدرب على الخلق الحميد لتكتسبه، وبإمكانك التطبع بالخصال الكريمة لتلتزمها. وبإمكانك التخلي عما علق بك مما لا يليق بمثلك. (وهذا هدف السلسلة)

سبق حديث عنوانه: لماذا هذه السلسلة؟، وحديث عنوانه: كيف يعرف المرء عيوب نفسه؟

وعنوان خطبة اليوم: (كيف يكتسب المرء الخلق الحميد ويتخلي عن الذميمة؟)

إليك طرقاً خمسة تعين على كسب الأخلاق الحميدة، والتخلي عن الذميمة:

1- الأسرة:

تعلمون - أيها الإخوة - أنَّ الأسرة مستودع الأخلاق ومنبت العقائد ومغرس القيم.

وأول مكان يتلقى فيه المرء معتقداته وأفكاره وقيمه ومعارفه، أسرته.

وهو مولود على الفطرة وأبواه يثبتانه أو يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.

جعل القرآن الكريم (لقمان) عنوان سورة من سوره، وفاجأنا بأنه لم يحدثنا عن صلاة لقمان أو صومه أو حجه، ولكنه حدثنا عن لقمان الأب المربي الذي يغرس في ولده العقيدة الصحيحة،

والأخلاق الرشيدة، فيستحق بذلك أن يكون اسمه مخلداً في القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يُعْطِيهِ

يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13].

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (17) وَلَا تُصَعِّرْ

خَدَكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ

إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: 17 - 19].

فنحن بحاجة إلى أبٍ يربي كحاجتنا إلى أبٍ يُغذي، وبحاجة إلى أمٍ مُعلِّمة كحاجتنا إلى أمٍ مُطعِمة.

وإنَّ من أكبر الفواجع أن ينشغل الأب عن تربية أولاده بجمع ماله وأصحابه، وأن تخرج الأم من

بيتها فلا تنفرغ لغرس العقائد والأخلاق في أولادها.

ومن هنا أوجه رسالتين: الأولى: لكل أبوين، والثانية: لكل شابين مقبلين على الزواج.

أما رسالتي للأبوين: فأن يوقنا أن أقرب ما يتقربان به إلى الله تعالى، ويخدمان به مجتمعهما تربية أولادهما تربية صحيحة بغرس العقيدة الصحيحة والأخلاق النبيلة فيهم.

وأما رسالتي لكل شابين مقبلين على الزواج: فأن يجعلنا من ضمن معايير اختيار كل منهما لزوجه أن يكون صالحاً لتربية الأولاد في المستقبل.

ويعينه على معرفة صلاحه من عدمه أن يختاره من أسرة مربية فاضلة، لأن الأزهار تُخرج أمثالها.

2- المعلم:

يقولون في التربية: إن المرء يتعلم بعينه 60%، ويتعلم بأذنيه 20%، ويتعلم بباقي حواسه 20%.

فعندما ترى معلمك يجسد الأخلاق قولاً وفعلاً، تنطبع صورة الخلق العالي فيك فلا تنساها.

عندما ترى معلمك صادق الوعد والكلمة، عفيف اللسان واليد، مؤدّب المشية والحديث، ملتزم الآداب مع من حوله... فلن تنس هذه الأخلاق في حياتك.

عَنْ مَعْنِ بْنِ عِيسَى قَالَ: (كَانَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَجْلِسَ لِلْحَدِيثِ اغْتَسَلَ وَتَبَخَّرَ وَتَطَيَّبَ، فَإِنْ رَفَعَ أَحَدٌ صَوْتَهُ فِي مَجْلِسِهِ زَبَرَهُ، وَقَالَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: 2] فَمَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ عِنْدَ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَأَنَّمَا رَفَعَ صَوْتَهُ

فَوْقَ صَوْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) [تهذيب الكمال للمزي].

سُئِلَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ عَنْ عَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ فَقَالَ لِلْسَّائِلِ: (سَأَلْتُ عَنْ رَجُلٍ كَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ أَدْبَتَهُ، وَكَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ رَبَّتَهُ، إِنْ قَامَ بِأَمْرٍ قَعَدَ بِهِ، وَإِنْ قَعَدَ بِأَمْرٍ قَامَ بِهِ، وَإِنْ أَمَرَ بِشَيْءٍ كَانَ أَلْزَمَ النَّاسَ لَهُ، وَإِنْ نَهَى عَنْ شَيْءٍ كَانَ أَتْرَكَ النَّاسَ لَهُ، مَا رَأَيْتُ ظَاهِراً أَشْبَهَ بِبَاطِنٍ وَلَا بَاطِناً أَشْبَهَ بِظَاهِرٍ مِنْهُ) [مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان لليافعي].

لما خرج العزُّ بن عبد السلام من الشام إلى مصر امتنع مفتي الديار المصرية وحافظها وزاهدها الإمام عبد العظيم المنذري—صاحب الترغيب والترهيب—من الإفتاء وقال: (كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين فيه) [طبقات الشافعية الكبرى للسبكي].

عندما تصحب العالم يعلمك الأدب بفعله قبل قوله، وبحاله قبل مقاله.

كان سيدنا عمر قبل إسلامه رجلاً جباراً يبطش ويسيء للناس، فلما صحب معلمه سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم صار رقيق القلب في وجهه خَطَّانِ أَسْوَدَانِ مِنَ الْبُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ.

3- صاحب الصادق:

كلمة السر في كل خطب الجمعة والدروس التي تسمعون والمحاضرات التي تحضرون هي صاحب،
فإذا صاحبت الكبار صرت كبيراً، وإذا صاحبت الصغار أصابك الصغار.

إذا صاحبت الكرام علموك الكرم، وإذا صاحبت اللئام علموك اللؤم.

إذا صاحبت صاحب الأخلاق الحسنة أصابتك عدوى الأخلاق الحسنة، وإذا صاحبت صاحب
الأخلاق السيئة أصابتك عدوى أخلاقه.

كان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب آية في الجود والعطاء، حتى كان لا يُبقي في يده مالاً من جوده
وعطائه، وقد روي أنه خرج يوماً يتنزه حتى تخطى بيوت المدينة، فرأى قطعة أرض فيها نخيل وبها عبدٌ
أسود يرعى أغناماً لسيده، وقد حان وقت غدائه ففتح صرة كانت معه بها ثلاثة أرغفة، ولما همَّ بأكل
أحدها إذا كلب يلهث من الجوع والظمأ قد حضر إليه، فألقى إليه الرغيف فالتهمه، فألقى له الثاني
فالتالث، فعجب ابن جعفر ونادى الغلام، والغلام لا يعرفه.

فقال له: يا فتى ما هو قوت يومك؟ قال: ما قد رأيت. قال: وماذا تصنع؟ قال: أطوي يومي على
الجوع! قال وما حملك على هذا؟! قال: إنَّ أرضنا هذه لا يأتي إليها الكلاب، فهذا الكلب لا بد أنه
جاء من المدينة ورأيتُه يقصديني فاستحييت من الله أن أردّه جائعاً.

فعجب عبد الله وقال: يقولون إني جواد وهذا الغلام أجود مني! ثم اشترى الغلام من سيده واشترى
الأغنام واشترى الأرض بما عليها من نخيل، وأعتق الغلام ووهبه تلك الأشياء.

وذكر عن الحسن بن علي أن رجلاً شتمه، فوقف الحسن يستمع إليه فزاد في شتائمه، فلما انتهى
قال له: يا رجل هل عندك من مزيد؟ قال: لا!

قال: إني عما قريب سأصل إلى ديارى، وإن قومي إذا سمعوا حديثك ضربوك، وإنني لا أريد أن
أؤذيكم. قال: أشهد أنك ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم!

طلق شاب زوجته ثم جاءني يبكي وأخبرني بأنه ما تلفظ بكلمة الطلاق يوماً، ولا يدري كيف
خرجت اليوم على لسانه، فسألته: هل تجالس أصدقاء يتلفظون بها؟ فقال: نعم يوجد اثنان يحلفان دائماً
بالطلاق

فقلت: خرجت كلمتك بسبب هذين. فالطبع يسرق من الطبع.

يكتسب المرء الخلق الحميد ويتخلى عن الذميمة بالأسرة أولاً وبالمعلم ثانياً وبالصاحب ثالثاً.

إنَّ من طبيعة النفس أنها لا تحب الالتزام بالآداب، فإذا أردت أن تزداد أخلاقك رفعةً فيجب عليك أن تجاهد نفسك وتغالبها وتحملها حملاً على الخلق الحسن، فمثلاً:

- من آداب شرب الماء: شربه على ثلاثة دفعات، لكنَّ النفس عند العطش تحب أن تُعَبَّ الماء عباً.
 - ومن الأدب الإسلامي عند النوم: أن تنام على جنب الأيمن، لكنَّ النفس أحياناً لا تحب هذه الضجعة فتنام على شقها الأيسر أو على البطن.
 - من الأدب: عدم رفع الصوت أمام الوالدين، لكنَّ النفس إذا غضبت لا تنضبط بهذا الأدب.
 - قد تدعوك نفسك إلى النظر الحرام، وهذا سوء خلق وأدب.
 - قد تدعوك إلى المزاح الكاذب.....
- ورحم الله البوصيري حين قال:

وَجَاهِدِ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ وَاعْصِمَهُمَا وَإِنْ هُمَا مُحَضَّاكَ التُّصَحَّ فَاتَّهِمِ

يقول الإمام الغزالي: (فمن أراد مثلاً أن يحصل لنفسه خلق الجود، فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجواد، وهو بذل المال فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفاً مجاهداً نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعاً له ويتيسر عليه فيصير به جواداً، وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقاً له وطبعاً فيتيسر عليه) [إحياء علوم الدين].

5- الدعاء:

وهو سؤال المولى سبحانه أن يُخَلِّقَ بالأخلاق الحسنة وأن يرفع عنك سيئها.

كان رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، دَعَا: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ» [مسلم].

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خُلُقِي، فَأَحْسِنْ خُلُقِي» [أحمد].

أيها الإخوة:

هي خمسة بما يكتسب المرء الخلق الحميد ويتخلى عن الذميمة: أسرته ومعلمه وصاحبه ومجاهدته نفسه والدعاء، (الأسرة، والمعلم، والصاحب الصادق، والمجاهدة، والدعاء).

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلقٍ حسنٍ وإنَّ الله تعالى لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ» [الترمذي].

والحمد لله رب العالمين